الفصل الثالث
﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾

تعالي الله الواحد الأحد الغني عن الصاحبة والولد أن يكون له ولد، وحاشا لعيسى- عليه السلام- أن يقول أنه الابن المولود لله سبحانه وتعالى؛ وإنما ظهرت هذه المقولة في القرن الرابع فكانت – مع غيرها من المقولات التي لم يعرفها تلاميذ عيسى وحوارييه بل قاوموها في مهدها- بداية خط الابتعاد عن التوحيد الخالص. وفي هذا الفصل سنعرض للشواهد الكثيرة في العهد القديم والأناجيل التي جاء فيها لفظ أو معنى عبارة "ابن الله"، لنبين للقارئ أن هذه العبارة إنما جاءت في هذه النصوص بالمعنى المجازي للبنوة، وأن استخدامها لم يقتصر على عيسى عليه السلام فحسب بل استخدمت أيضًا في الإشارة إلى غيره من الأنبياء كآدم ويعقوب، وكذلك إلى أنصار عيسى وإلى البشر بشكل عام. وليس ثمة مبرر أو نص يفيد خصوصية علاقة عيسى بربه وخالقه، ولا عبرة بمولده بقدرة الله من غير أب، فقد خُلِق آدم ابتداء من غير أب ولا أم بقوله تعالى:

﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

في العهد القديم:

"وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس، ... وبعد ذلك أيضًا إذ دخل بنو الله على بنات الناس..." (تكوين ٦/ ١-٤).

"فتقول لفرعون هكذا يقول الرب: إسرائيل ابني البكر" (خروج ٤/ ٢٢).

"أنتم أولاد للرب إلهكم.." (تثنية ١٤/ ١).

وفي مزامير داود: "إني أخبر من جهة قضاء الرب، قال لي: أنت ابني، أنا اليوم ولدتك" (مزمور ٢/ ٧).

في العهد الجديد:

"لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات"(متى ٥/ ٤٥).

"طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون"(متى ٥/ ٩).

"فليضئ نوركم هذا قدام الناس لكي يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذي في السماوات" (متى ٥/ ١٦).

"احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكي ينظروكم

وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذي في السماوات" (متى ٦/ ١).

"لكي تكون صدقتك في الخفاء؛ فأبوك الذي يرى في الخفاء هو يجازيك علانية" (متى ٦/ ٤).

"وأما أنت فمتى صليت فادخل إلى مخدعك وأغلق بابك وصلِّ إلى أبيك الذي في الخفاء..." (متى ٦/ ٦).

"فلا تتشبهوا بهم لأن أباكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه" (متى ٦/ ٨).

"فصلوا أنتم هكذا: أبانا الذي في السماوات، ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض، خبزنا كفافنا أعطنا اليوم واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضًا للمذنبين إلينا، ولا تدخلنا في تجربة، لكن نجنا من الشرير لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد آمين" (متى ٦/ ٩-١٣).

"فإنه إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أيضا أبوكم السماوي، وإن لم تغفروا للناس زلاتهم لا يغفر لكم أبوكم أيضًا زلاتكم" (متى ٦/ ١٤-١٥).

"وأما أنت فمتى صمت فادهن رأسك واغسل وجهك، لكي لا تظهر للناس صائمًا بل لأبيك الذي في الخفاء فأبوك الذي يرى في

الخفاء يجازيك علانية" (متى ٦/ ١٧-١٨).

"انظروا إلى طيور السماء إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن، وأبوكم السماوي يقوتها"(متى ٦/ ٢٦).

"... لأن أباكم السماوي يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها" (متى ٦/ ٣٢).

"لأن لستم أنتم المتكلمين بل روح أبيكم الذي يتكلم فيكم" (متى ١٠/ ٢٠).

"ولا تدعوا لكم أبا على الأرض لأن أباكم واحد الذي في السماوات" (متى ٢٣/ ٩).

"ومتى وقفتم تصلون فاغفروا إن كان لكم على أحد شيء لكي يغفر لكم أيضًا أبوكم الذي في السماوات زلاتكم، وإن لم تغفروا أنتم لا يغفر أبوكم الذي في السماوات أيضًا زلاتكم" (مرقس ١١/ ٢٥-٢٦).

"قال لها يسوع لا تلمسيني لأني لم أصعد بعد إلى أبي، ولكن اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم أني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم"(يوحنا ٢٠/ ١٧).

"فكونوا رحماء كما أن أباكم أيضًا رحيم" (لوقا ٦/ ٣٦).

"فقال لهم متى صليتم فقولوا أبانا الذي في السماوات..." (لوقا ١١/ ٢).

"وأما أنتم فأبوكم يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه" (لوقا ١٢/ ٣٠).

"... بن آدم ابن الله" (لوقا ٣/ ٣٨).

وكما خاطب عيسى قومه على أنهم- مجازيًّا- أبناء الله استخدم نفس التعبير المجازي في حديثه عن نفسه، كما وصف نفسه بعبارة"ابن الإنسان" كما في النماذج التالية:

"وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا ملائكة السماوات إلا أبي وحده" (متى ٢٤/ ٣٦).

"... وأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه"(متى ٨/ ٢٠).

"وكما رفع موسى الحية في البرية هكذا ينبغي أن يرفع ابن الإنسان" (يوحنا٣/ ١٤).

وقد صحح عيسى- عليه السلام- هذه المفاهيم، وتنبأ بما سينسب إليه:

"الله هو البداية هو النهاية هو الأول هو الآخر، ولكنه قد أعطى

لكل شيء بداية، وأعطى لكل شيء نهاية، لا أب له، ولا أم له، ولا ولد له، ولا إخوة له، ولا رفقاء أو شركاء له، الله لاجسد له، لا يأكل ولا ينام ولا يموت، ولا يمشي ولا يتحرك، ولكنه حي أزلي، لا شبيه له من بني البشر..." (برنابا ١٧).

"وبعد أن قال عيسى ذلك راح يلطم على وجهه بيديه ويضرب الأرض، ثم يرفع قامته ويقول: ملعون ذلك الذي يضع بين أقوالي أنني ابن الله . وعندئذ انكفأ التلاميذ وكأنهم موتى، وراح عيسى يرفعهم واحدا واحدا، قائلا: فلتَخَف اللهَ الآن إذا مَنَّ علينا ألا نخاف في ذلك اليوم (يوم القيامة)" (برنابا ٥٣)

"فأجاب عيسى: وماذا تقولون أنتم فيَّ، فأجاب بطرس: إنك المسيح ابن الله، فغضب عيسى غضبا شديدا، وأخذ يؤنبه ..." (برنابا ٧٠).

"...وإني أدعوك ربي أن تنزل لعنتك إلى الأبد على كل من يحاول إفساد إنجيلي الذي أعطيتني إياه عندما يكتبون أني ابن الله، فأنا من الطين والتراب خادم لخدمك بل إني لم أفكر قط أن أكون خادمك الأول..." (برنابا ٢١٢).

وفي القرآن الكريم قال تعالى:

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبۡحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦﴾ [البقرة:١١٦].

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩﴾ [آل عمران:٥٩].

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡ ۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتَۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ ۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٠١﴾ [الأنعام:١٠٠-١٠١].

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٣٠﴾ [التوبة:٣٠].

﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبۡحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٨﴾ [يونس: ٦٨].

﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ١١١﴾ [الإسراء: ١١١].

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ٥﴾[الكهف: ٤-٥].

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٣٤ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٣٥﴾ [مريم: ٣٤-٣٥].

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣﴾[مريم: ٨٨-٩٣].

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ

خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩].

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون:٩١-٩٢].

﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان: ٢].

﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الصافات:١٥١-١٥٢].

﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾[الزمر: ٤].

﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الزخرف:٨١-٨٢].

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾ [الجن: ٣].

﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣﴾ [الإخلاص: ١-٣].

ولتأكيد التماثل بين خلق عيسى بلا أب وخلق آدم بلا أب أو أم نسوق الآيات التالية:

﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٩١﴾[الأنبياء:٩١].

﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢﴾ [ص:٧١-٧٢].

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾[آل عمران/ ٥٩].